إدارةُ الوقتِ

لقد عَرَفَ النبيُّ ﷺ قيمةَ الوقتِ ، فجعلَه ظرفاً لبطولاتٍ تعجزُ عن صنعها الأممُ والشعوبُ ، حتّى أقسمَ اللهُ في عليائه بِعُمُرِه الثمينِ ، فقال تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[١] [الحجر : ٧٢] ، وعرَّفَ أصحابَه الطيبين قيمةَ الوقت فعرفوه ، فجَعَلَ منهم أبطالاً ، وحَمَلَتْ أحدَهم على أنْ يقولَ : « والله لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، ولو علمتُ أن غداً أجلي ما قدرتُ أن أزيد في عملي »[٢] .

في القرآنِ الكريمِ سورةٌ قصيرةٌ ، « كان الرَّجلانِ مِن أصحابِ رسول الله ﷺ إذا الْتَقَيَا لم يتفرَّقا إلا أن يقرأ أحدُهما على الآخر هذه

---

(١) جاء في لسان العرب (مادة عمه) [العَمَهُ : التَّحَيُّر والتَّرَدُّد . . . وقيل : العَمَهُ التَّرَدُّدُ في الضلالة والتحير في مُنازعةٍ أَو طريقٍ ؛ قال ثعلب : هو أَن لا يعرف الحُجَّة ؛ وقال اللحياني : هو تَرَدُّده لا يدري أَين يتوجه ، وفي التنزيل العزيز : ونذَرُهُم في طُغْيانهم يَعْمَهُون ؛ ومعنى يعمهون : يتحيرون . . . قال ابن الأَثير : العَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصَر . ورجل عَمِهٌ عامِهٌ أَي يَتَرَدَّدُ مُتَحيِّراً لا يهتدي لطريقه ومَذْهَبه ، والجمع عَمِهون وعُمَّهٌ . وقد عَمِه ، وعَمَهَ يَعْمَهُ عَمَهاً ، وعُمُوهاً ، وعُمُوهَةً ، وعَمَهاناً إِذا حادَ عن الحق] .

(٢) حاشية السِّنْدي على سنن النسائي (٨/ ٩٦) مِن قول عليٍّ رضي الله عنه .

السورةَ ، ثم يسلم أحدها على الآخر »[١] ، وكان الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله تعالى يقول : « لو تدبَّر الناسُ هذه السورةَ لوسعتهم »[٢] .

هذه السورةُ ترسمُ منهجاً كاملاً للحياةِ البشريةِ ، كما يريدُها خالقَ البشريةِ ، فعلى امتدادِ الزمانِ في جميعِ العصورِ ، وعلى امتدادِ المكانِ في جميع الدهورِ ، ليسَ أمامَ الإنسانِ إلا منهجٌ واحدٌ رابحٌ ، سالكٌ إلى جنةِ الخُلدِ ، وكلُّ ما وراء ذلك فهو ضياعٌ ، وخسارةٌ ، وشقاءٌ .

لعلكم تسألون : ما هذه السورةُ ؟ إنها سورةُ العصرِ ، قال تعالى :

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر : ١ـ٢] .

لقد أَقْسمَ اللهُ جلّ جلالُه بمطلقِ الزمنِ ، العصرِ ، لهذا الإنسانِ الذي هو في حقيقتِه زمنٌ ، فهو بِضْعَةُ أيام ، كلَّما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه ، وما مِن يوم ينشقُّ فجرُه إلا وينادي : يا ابنَ آدمَ ، أنا خَلقٌ جديدٌ ، وعلى عملِك شهيدٌ ، فتزوَّدْ منِّي ، فإني لا أعودُ إلى يوم القيامةِ .

لقد أقسمَ اللهُ بالزمنِ للإنسانِ أنّه في خُسرٍ ، بمعنى أنَّ مُضِيَّ الزمنِ وحدَه يستهلكُ عُمُرَ الإنسان الذي هو رأسُ ماله ، ووعاءُ عملِه الصالحِ الذي هو ثمنُ الجنة التي وُعِدَ بها ، وهلِ الخسارةُ في العُرْفِ التِّجاريِّ إلا أنْ تُضَيِّعَ رأسَ مالِكَ مِن دون تحقيقِ الربحِ المطلوب ، لكنّ الإنسانَ إذا استثْمرَ الوقتَ فيما خُلِقَ له ، يستطيع أنْ يتلافَى هذه الخسارةَ ، وذلك

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٣٣) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨) .

بالإيمانِ ، والعملِ الصالحِ ، والتواصي بالحقِّ ، والتواصي بالصّبرِ ، قال تعالى :

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١-٣] .

أولاً : الإيمان ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ .

إنّ الإيمانَ هو اتصالُ هذا الكائنِ الإنسانيّ الصغيرِ ، الضعيف الفاني ، المحدود ، بالأصل المطلقِ الأزليّ الباقي ، الذي صدرَ عنه هذا الوجودُ ، وعندئذٍ ينطلقُ هذا الإنسانُ من حدودِ ذاته الصغيرةِ ، إلى رحابةِ الكونِ الكبيرِ ، مِن حدودِ قوتهِ الهزليةِ ، إلى عظمةِ الطاقاتِ الكونيةِ المخبوءةِ ، من حدودِ عمرِه القصيرِ ، إلى امتدادِ الآبادِ التي لا يعلمُها إلا اللهُ ، هذا الاتصالُ يمنحُ الإنسانَ القوةَ ، والامتدادَ ، والانطلاقَ ، ويمنحُه كذلك السعادةَ الحقيقيةَ التي يَلْهَثُ وراءها الإنسانُ ، وهي سعادةٌ رفيعةٌ ، وفرحٌ نفيسٌ ، وأُنْسٌ بالحياةِ ، كَأُنْسِ الحبيبِ بحبيبِه ، وهو كَسْبٌ لا يعدِلُه كسبٌ ، وفقدانُه خسرانٌ لا يعدِله خسرانٌ ، وعبادةُ إلهٍ واحدٍ ترفعُ الإنسانَ عن العبوديةِ لسواه ، فلا يذلّ لأحَدٍ ، ولا يحني رأسَه لغيرِ الواحدِ القهّارِ ، فليس هناك إلا قوةٌ واحدةٌ ، ومعبودٌ واحدٌ ، وعندئذٍ تنتفِي مِن حياةِ الإنسانِ المصلحةُ ، والهوى ، ليحلّ محلَّها الشريعةُ والعدلُ .

والاعتقادُ بكرامةِ الإنسانِ عند الله ، وهو مِن لوازمِ الإيمانِ ، يرفعُ مِن قيمتِه في نظرِ نفسِه ، ويثيرُ في نفْسهِ الحياءَ مِنَ التّدنّي عنِ المرتبةِ التي رَفَعَهُ اللهُ إليها .

ثانياً : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

ولأنّ الإيمانَ حقيقةٌ إيجابيةٌ متحركةٌ ، كان العملُ الصالحُ هو الثمرةَ الطبيعيةَ للإيمان ، فمَا إنْ تستقرّ حقيقةُ الإيمانِ في ضميرِ المؤمنِ حتّى تسعَى بذاتِها إلى تحقيق ذاتِها ، في صورةِ عملٍ صالحٍ ، فلا يمكنُ أنْ يظلَّ الإيمانُ في نفسِ المؤمنِ خامداً لا يتحرّك ، كامناً لا يَتبَدَّى ، فإنْ لم يتحرّكِ الإيمانُ هذه الحركةَ الطبيعيةَ فهو مزيَّفٌ ، أو ميتٌ ، شأنُه شأنُ الزهرةِ ، ينبعثُ أريجُها منها انبعاثاً طبيعياً ، فإنْ لم ينبعثْ منها أريجٌ فهو غيرُ موجود .

إنّ العملَ الصالحَ ليس فلتةً عارضةً ، ولا نزوةً طارئةً ، ولا حادثةً منقطعةً ، إنما ينبعثُ عن دوافعَ ، ويتّجهُ إلى أهدافٍ ، ويتعاونُ عليه المؤمنون .

وإنّ الإيمانَ ليس انكماشاً ، ولا سلبيةً ، ولا انزواءً ، ولا تَقَوْقُعاً ، بل هو حركةٌ خَيِّرَةٌ نظيفةٌ ، وعَمَلٌ إيجابيٌّ هادفٌ ، وعِمارةٌ منوازنةٌ للأرض ، وبناءٌ شامخٌ للأجيال ، يتّجهُ إلى الله ، ويليقُ بمنهج الله ، ورَحِمَ اللهُ عمرَ بنِ عبد العزيز إذ يقول : « إن اللّيلَ والنهارَ يعملانِ فيكَ ، فاعملْ فيهما ، ويأخذانِ منكَ ، فخذْ منهما » .

كلما اتَسعتْ رقعةُ العملِ فشملتْ أعداداً كبيرةً من البشرِ حتى دخلتْ فيه الأممُ والشعوبُ ، وكلّما امتدّ أمدُ العملِ وطالَ حتى توارثتْ ثمارَه أجيالٌ وأجيالٌ ، وكلما تغلغلَ العملُ في كيانِ الإنسانِ كلِّه ؛ المادّيّ والنفسيّ ، والاجتماعيّ والروحيّ ، حتى تحقَّق به وجودُ الإنسان ،

وتألّقتْ من خلاله إنسانيتُه ، وكان كما أُريدَ له أنْ يكونَ .

إذاً كلّما اتسعتْ رقعةُ العمل ، وعَمَّ خيرُه ، وطالَ أمدُه ، واشتدَّ تأثيرُه ، كانَ أعظمَ عندَ اللهِ .

هذه صفاتُ العملِ الصالحِ ، فالنبيّ ﷺ أَخْرَجَ الناسَ مِن الظلمات إلى النور ، ومِن دَرَكَاتِ الجاهليةِ إلى أعلى مراتبِ الإنسانية ، وغيَّر وجهَ التاريخِ البشريّ كله إلى اليوم ، وإلى ما شاءَ اللهُ ، في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً ، أقامَ فيها ديناً جديداً ، وربَّى جيلاً فريداً ، وأنشأ أمّةً مثاليةً ، وأسّسَ دولةً عالَميةً ، في هذا الزمنِ اليسيرِ ، مع كلّ الصعوباتِ والعوائقِ التي اعترضتْ سبيلَه مِن أوّل يومٍ .

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزانِ الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتُه ومثوبتُه عند الله كلما كثرتِ العوائقُ في سبيله ، وعظُمتِ الصوارفُ عنه ، وقَلَّ المُعينُ عليه .

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزان الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتُه ومثوبتُه عند اللهِ حينما تَفْسُدُ المجتمعاتُ ، وتضطرب الأحوالُ ، فيجورُ الأمراءُ ، ويتجبّرُ الأقوياءُ ـ كما ترون ـ ويترفُ الأغنياءُ ، ويداهِنُ العلماءُ ، وتشيعُ الفاحشةُ ، ويظهرُ المنكرُ ، ويختفي المعروفُ ، وفي الحديث عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ ، كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ »[1] .

هنا محلُّ الإشارةِ إلى أنّ الإنسانَ إذا رُزِقَ التوفيقَ في إنفاقِ وقتهِ يستطيعُ أنْ يُطيلَ عمرَه إلى ما شاء الله بعد موته ، فيحيا وهو ميتٌ ،

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٤٨) ، والترمذي رقم (٢٢٠١) .

ويؤدّي رسالتَه وهو تحتَ الترابِ ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ ، إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[١] ، فكيف إنْ لم يكن له عملٌ أصلاً ، ووافتْه المنيّةُ على ذلك .

وفي حديثٍ آخرَ تضمّنَ تفصيلاتٍ لهذه الثلاث ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْماً عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ ، وَوَلَداً صَالِحاً تَرَكَهُ ، وَمُصْحَفاً وَرَّثَهُ ، أَوْ مَسْجِداً بَنَاهُ ، أَوْ بَيْتاً لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ ، أَوْ نَهْراً أَجْرَاهُ ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ »[٢] .

وفي صحيحِ مسلم : « من سن في الإسلام سنن حسن فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ ، ومن سن في الإسلام سن سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[٣] .

فوَيْلٌ ، ثم ويلٌ ، ثم ويلٌ ، لِمَنِ انقضتْ آجالُهم ، وضلالاتُهم ، وآثامُهم باقيةٌ مِن بعدهم ، وهنيئاً ، ثم هنيئاً ، ثم هنيئاً لِمَن كانوا تحت الثرى ، والناسُ مهتدُون بهدْيِهم ، سعداءُ بأعمالِهم .

قال صاحبُ الحِكَمِ العطائيةِ : « رُبَّ عُمُرٍ اتَّسعت آمادُه ، وقلَّتْ أمدادُه ، ورُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آمادُه ، كثيرةٌ أمدادُه ، مَنْ بورِكَ له في عُمرِه

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة .
(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٩٠) .
(٣) مسلم (١٠١٧) .

أدركَ في يسيرٍ مِنَ الزمنِ مِنَ مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخلُ تحتَ دوائر العبارةِ ، ولا تلحقُه الإشارةِ »[١] .

ثالثاً : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

لأنَّ النهوضَ بالحقِّ عسيرٌ ، والعوائقُ كثيرةٌ ، والصوارفُ عديدةٌ ، فهناك هوى النفوسِ ، ومنطقُ المصلحةِ ، وظروفُ البيئةِ ، وضغوطُ العملِ ، والتقاليدُ ، والعاداتُ ، والحرصُ ، والطمعُ ، عندئذٍ يأتي التواصي بالحق ، لأنّ المرءَ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ يكمِّل نفسَه ، وبالتواصي بالحقِّ يكمِّل غيرَه ، وبما أنّ كيانَ الأمةِ مبنيٌّ على الدِّينِ الحقِّ الذي جاءنا بِالنَّقلِ الصحيح ، وأكّده العقلُ الصريحُ ، وأقرَّه الواقعُ الموضوعيُّ ، وتطابقَ مع الفطرةِ السليمةِ ، فلا بد أنّ يستمرَّ هذا الحقُّ ، ويستقرَّ ، حتى تشعرَ الأمةُ بكيانِها ، ورسالتِها ، فالتواصي بالحق قضيةٌ مصيريةٌ ، فما لم تَتَنَامَ دوائرُ الحقِّ في الأرضِ ، تنامتْ دوائرُ الباطلِ ، وحاصرتْه ، فالتواصي بالحق يعني الحفاظَ على وجودِه ، والأداءِ لرسالتِه .

رابعاً : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

لقد شاءتْ حكمةُ اللهِ جل جلاله أنْ تكونَ الدنيا دارَ ابتلاءٍ بالشَّرِّ والخيرِ ، ودارَ صراعٍ بين الحقِّ والباطلِ ، لذلك كان التواصي بالصبرِ ضرورةً للفوزِ بالابتلاءِ ، والغلبةِ في الصراعِ ، فلا بد مِنَ التواصي بالصبرِ

---

(١) الحكم العطائية رقم (٢٥٩ـ٢٦٠) .

على مغالبةِ الهوى ، وعنادِ الباطلِ ، وتحّملِ الأذى ، وتكبّدِ المشقةِ ، لذلك يعدُّ الصبرُ وسيلةً فعالةً لتذليلِ العقباتِ ، ومضاعفةِ القدراتِ ، وبلوغِ الغاياتِ ، قال تعالى :

﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إنّ العبرةَ ليستْ في إنفاقِ الوقتِ ، بل في استثماره ، فالوقتُ إذا أنفقناهُ ضاعَ ، أما إذا استثمرناهُ فسينمو ، ويُؤتِي ثمارَه في مستقبلِ حياتنا ، وللأجيالِ القادمةِ .

إذاً كيف يُنفقُ المسلمُ الزمنَ إنفاقاً استثماريًّا ، لئلاّ تُحقَّق به الخسارةُ ؟ إنَّ هذا ما يسمَّى في المصطلح الحديث إدارةَ الوقت .

الوقتُ في حياةِ المسلمِ عبادةٌ ممتدَّةٌ ، أمّا الوقتُ في الثقافةِ الغربيةِ ، والنظرياتِ الماديةِ فإنه لا يخرجُ عن نطاقِ المثَلِ الشائعِ : « الوقت هو المال » ، وإذا وَازَنَّا هذه العبارةَ بقولِ الحسنِ البصريِّ رحمه الله تعالى : « أدركتُ أقواماً كان أحدُهم أشحَّ على عمُرِه منه على دراهمِه ودنانيرِ » ، نَستنتجُ أنّ الوقتَ عندَ المسلمِ أغلى مِنَ المالِ ، ذلك أنّ المسلمَ يُدركُ أنّ المالَ يمكنُ تعويضُه ، ولكنّ الوقتَ لا يمكنُ تعويضُه .

حينما يَحرقُ الإنسانُ مبلغاً كبيراً مِنَ المال يُحكَم عليه بالسَّفَهِ ، ويُحْجَر على تصرفاتِه ، ولأنه مركَّبٌ في أعماقِ الإنسانِ أنّ الوقتَ أثمنُ مِنَ المالِ ، بدليلِ أنه يبيعُ بيتَه الذي يسكنُه ، ولا يملكُ شيئاً سِوَاهُ ، ليُجريَ بثمنِه عمليةً جراحيةً ، متوهِّماً أنّها تزيدُ في حياتِه سنواتٍ عدةً ،

فالوقتُ عندَ كلّ إنسانٍ أثمنُ مِنَ المال ، وبناءً على هذه المُسَلَّمَةِ فإنّ الذي يُتلفُ وقتَه أشدُّ سَفَهاً مِنَ الذي يُتْلِفُ مالَه .

إنّ إدارةَ الوقتِ هِي فعلُ ما ينبغِي ، على الوجهِ الذي ينبغِي ، في الوقتِ الذي ينبغِي ، والوقتُ مِن ذَهَبٍ ، بل أغلى مِنَ الذهبِ ، بل لا يُقدَّرُ بثمنٍ ، إنه أنت ، ويُعَدُّ الوقتُ أحدَ أربعةِ مواردَ أساسيةٍ في مجالِ الأعمالِ ؛ هي : الموادُّ ، والمعلوماتُ ، والأفرادُ ، ثم الوقتُ الذي يُعدّ أكثرَها أهميةً ، لأنّه كلما تَحَكّمَ الفردُ في وقتِه بمهارةٍ وإيجابيةٍ استطاعَ أنْ يستثمرَه في تحقيقِ أقصى عائدٍ ممكنٍ مِنَ الموارِدِ الأخرى ؛ حيثُ إنّ الفردَ عندما يديرُ وقتَه بشكلٍ فعّالٍ هو في الحقيقة يديرُ نفسَه ، وعبادتَه ، وعملَه ، ودنياهُ إدارةً فعّالةً ، وكيْ نكونَ واقعيّين ، إنْ لم يكنْ بالإمكانِ استثمارُ كلِّ الوقتِ ، فعلى الأقلِّ يمكنُ أنْ نستثمرَ أكبرَ قدْرٍ مِنه .

ومعَ هذه الأهمّيةِ الكبيرةِ للوقتِ ، فإنّ أكثرَ العناصرِ والمواردِ هدراً ، وإنّ أقلَّها استثماراً ، سواء مِنَ الجماعات ، أو مِنَ الأفراد هو الوقتُ ، ويعودُ هذا لأسبابٍ عدّةٍ ، أهمّها عدمُ الإدراكِ الكافِي للخسارةِ الكبيرةِ المترتبةِ على سُوءِ إدارتِه .

الوقتُ مَوْرِدٌ نادرٌ ، لا يمكنُ تجميعُه ، ولأنّه سريعُ الانقضاءِ ، وما مضَى منه لا يرجعُ ، ولا يعوَّضُ بشيء ، كان الوقتُ أنفسَ وأثمنَ ما يملكُ الإنسانُ ، وترجعُ نفاستُه إلى أنه وعاءٌ لكلِّ علمٍ ، ولكلِّ عملٍ ، ولكلِّ عبادةٍ ، فهو في الواقعِ رأسُ المالِ الحقيقيّ للبشري فرادى وجماعات .

ومِنْ هذا المنطلقِ يعدُّ الوقتُ أساسَ الحياةِ ، وعليه تقومُ الحضارةُ ،

فصحيحٌ أنّ الوقتَ لا يمكن شراؤُه ، ولا بيعُه ، ولا تأجيرُه ، ولا استعارتُه ، ولا مضاعفتُه ، ولا توفيرُه ، ولا تصنيعُه ، ولكن يمكن استثمارُه وتوظيفُه ، أولئك الذين لديهم الوقتُ لإنجازِ أعمالِهم ، ولديهم أيضاً الوقتُ لمعرفةِ ربِّهم ، وعبادتِه ، والتقرّبِ إليه ، عرفوا قيمتَه ، هم يستثمرون كلَّ دقيقةٍ مِن وقتهم ، ولذا فإدارةُ الوقتِ لا تنطلقُ إلى تغييرِه ، أو تعديلِه ، أو تطويرِه ، بل إلى طريقةِ استثمارِه بشكلٍ فعّالٍ ، ومحاولةِ تقليلِ الوقتِ الضائعِ هَدْراً مِن دون فائدةٍ .

يؤكِّد العلماء منذ زَمَنٍ قديم أنَّ الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ محدّدةٍ وثابتةٍ ، فكلُّ ثانيةٍ أو دقيقةٍ ، وكلُّ ساعةٍ تشبهُ الأخرى ، وأنّ الوقتَ يسيرُ إلى الأمامِ على نحوٍ متتابع ، وأنه يتحركُ وَفقَ نظامٍ معيَّن مُحكَم ، لا يمكن إيقافُه ، أو تغييرُه ، أو زيادتُه ، أو إعادةُ تنظيمه ، وبهذا يمضي الوقتُ بانتظامٍ نحوَ الأمامِ ، دونَ أيِّ تأخيرٍ أو تقديم ، ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ إيقافُه أو تراكمُه أو إلغاؤُه أو تبديلُه أو إحلالُه ، إنّه موردٌ محدَّدٌ يملكُه الجميعُ بالتساوي ، مع أنّ الناسَ لم يُولَدوا بقدراتٍ أو فُرَصٍ متساويةٍ ، فإنهم جميعاً يملكون الأربعَ والعشرين ساعةً نفْسَها كلَّ يومٍ ، والاثنينِ والخمسينَ أسبوعاً كلَّ عامٍ ، وهكذا فإنَّ جميعَ الناسِ متساوون في ناحيةِ المُدَّةِ الزمنيةِ ، سواء أكانوا من كبارِ الموظفين أم مِن صغارهم ، مِن أغنياءِ القوم أم مِن فقرائهم ، لذلك فالمشكلةُ ليستْ في مقدارِ الوقتِ المتاحِ لكلٍّ مِن هؤلاء ، ولكنْ في كيفيةِ إدارته واستخدامِه ، وهل يستخدمونه بطريقةٍ جيدةٍ ومفيدةٍ في إنجاز الأعمالِ المطلوبةِ منهم ، أو يهدرونه ، ويضيّعونَه في أمور قليلةِ الفائدةِ ؟

إنّ إدارةَ الوقتِ هي تحديدُ هدفٍ ، ثم تحقيقُه ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك : ٢٢] ، ولا شكّ أنّ مَنْ يمشِي إلى هدفٍ وغايةٍ واضحةٍ أهدى مِمَّن يَخبِطُ خَبْطَ عشواء ، هذه حقيقةٌ .

الوقتُ نعمةٌ عظيمةٌ ، تؤكِّد السُّنّةُ المطهّرةُ ما جاء في القرآن الكريم مِن أنّ الوقتَ مِنْ نِعَمِ الله على عباده ، وأنهم مأمورون بحفظه ، مسؤولون عنه ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ[1] فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ : الصِّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ »[2] ، ومعنى قوله ﷺ : « كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ » ، أيْ : الذي يُوَفَّقُ لذلك قليلٌ ، فقد يكون

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٢٣٠) : [والغبن بالسكونِ وبالتحريكِ ، وقال الجوهري : هو في البيع بالسكون ، وفي الرأي بالتحريك ، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر ، فإن من لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غبن ، لكونه باعهما ببخس ، ولم يحمد رأيه في ذلك ، قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغا حتى يكون مكفيا صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن ، بأن لا يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومِن شكره امتثالُ أوامرِه ، واجتنابُ نواهيه ، فمن فرّط في ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله : كثير من الناس إلى أن الذي يوفَّق لذلك قليل. . . وقال الطيبي : ضَرَبَ النبيُّ ﷺ للمكلَّف مثلا بالتاجرِ الذي له رأسُ مالٍ ، فهو يبتغي الربحَ مع سلامة رأس المال فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والحذق ، لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس ، وعدو الدين ، ليربح خيري الدنيا والآخرة. . . وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ، ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح ، وقوله في الحديث : « مغبون فيهما كثير من الناس » كقوله تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » ، فالكثير في الحديث في مقابله القليل في الآية] ، بتصرف يسير .

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩) ، والترمذي (٢٣٠٤) وغيرهما .

الإنسانُ صحيحاً ، ولا يكون متفرِّغاً لشُغْلِه بالمعاشِ ، وقد يكونُ مستغنياً ، ولا يكونُ صحيحاً ، فإذا اجتمعا ـ الصحةُ والفراغُ ـ فغَلَبَ على الإنسانِ الكسلُ عن الطاعةِ فهو المغبونُ ، والغُبْنُ أنْ تشتريَ بأضعافِ الثمنِ ، وأنْ تبيعَ بأقَلّ مِن ثمنِ المِثْلِ .

الوقتُ مسؤوليةٌ كبرى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ؟ »[١] .

الوقتُ وعاءُ العبادةِ ، فالصلاةُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ ونحوُها عباداتٌ محددَّةٌ بأوقاتٍ معيَّنةٍ ، لا يصحّ تأخيرُها عنها ، وبعضُها لا يُقْبَل إذا أُدِّيَ في غيرِ وقتِه ، فهي مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالوقتِ ، الذي هو في الحقيقةِ الظرفُ أو الوعاءُ الذي تُؤَدَّى فيه .

ومما وردَ عن النبي ﷺ في الحثِّ على أداءِ العباداتِ في وقتِها قولُه حين سئل : « أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ »[٢] .

الوقت في حياة النبي عليه الصلاة والسلام

كان عليه الصلاةُ والسلامُ مِن أَشَدِّ الناسِ حِرْصاً على وقتِه ، وكان لا يَمضي له وقتٌ مِن غير عَمَلٍ لله تعالى ، أو فيما لا بدّ له لصلاحِ نفسِه ،

---

(١) رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي (٢٤١٧) .

(٢) البخاري (٥٠٤) ، ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود .

يقول عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه يصفُ حالَ النبي ﷺ : « كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلاَثَةَ أَجْزَاءٍ : جُزْءاً لله ، وجُزْءاً لأَهْلِهِ ، وَجُزْءاً لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْءَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى العَامَّةِ بِالخَاصَّةِ »[١] .

وفي السُّنةِ النبويةِ الشريفةِ إشاراتٌ إلى أهميةِ الوقتِ ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »[٢] .

بل في حديثٍ رائعٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ »[٣] .

وللإمامِ ابنِ القيمِ ـ رحمه الله تعالى ـ قولٌ رائعٌ في قيمةِ الوقتِ في حياةِ المسلمِ ، يقول : « فالعارفُ ابنُ وقتِه ، فإنْ أضاعَه ضاعت عليه مصالحُه كلها ، فجميعُ المصالحِ إنما تنشأُ مِنَ الوقتِ ، فمتَى أضاعَ الوقتَ لم يستدرِكْه ، فوقتُ الإنسانِ هو عمرُه في الحقيقةِ ، وهو مادةُ حياتِه الأبديةِ في النعيمِ المقيمِ ، ومادةُ المعيشةِ الضنكِ في العذابِ الأليمِ ، وهو

---

(١) ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤٢٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٥٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٧) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٢٥) .

(٣) مسند أحمد (١٣٠٠٤) .

يمرّ أسرعَ مِن مَرِّ السحابِ ، فما كان مِن وقتِه للهِ ، وباللهِ فهو حياتُه وعمرُه ، وغيرُ ذلك ليس محسوباً مِن حياتِه ، وإنْ عاشَ فيه عيشَ البهائمِ ، فإذا قَطَعَ وقتَه في الغفلةِ والشهوةِ والأماني الباطلةِ ، وكان خيرُ وقتِهِ ما قطعه بالنوم والبطالة ، فموتُ هذا خيرٌ له مِن حياته ، وإذا كان العبدُ وهو في الصلاةِ ليس له من صلاته إلاَ ما عَقَلَ منها ، فليس له من عمرِه إلا ما كان فيه باللهِ وله »[1] .

ومَن جَهِل قيمةَ الوقتِ فسيأتي عليه موقفان خطيران ، يتذكّر فيهما هذه القيمةَ العظيمةَ .

أمّا الموقفُ الأولُ فساعةُ الاحتضارِ ، حينَ يودِّع الدنيا ، ويستقبلُ الآخرةَ ، ويتمنّى لو مُنِحَ مهلةً مِنَ الزمنِ ، وأُخِّر إلى أجلٍ قريبٍ ، ليُصلِحَ ما أفسدَ ، وليتداركَ ما فاتَ ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون : ٩-١٠] ، ويأتي الردُّ الإلهيُّ :

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١١] .

أمّا الموقفُ الثاني ففي الآخرةِ ، حيث تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما عملتْ ، وتُجزَى بما كسبتْ ، ويَدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، هناك يتمنّى أهلُ النارِ لو يعودون إلى دارِ التكليفِ ، ليعملوا عملاً صالحاً ،

---

(١) الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي (ص٢٠١) ، بتصرف يسير .

ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ ، فقد انتهى زمنُ العملِ ، وجاء زمنُ الجزاءِ ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٦ـ٣٧] .

القرآنُ يحذِّر مِنَ الغفلةِ أشدَّ التحذيرِ ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

آفةٌ أخرى تصيبُ الناسَ ؛ إنها التسويفُ ، يقول أحدهم : غداً ، وبَعْدَ غدٍ ، وسوف أتوبُ ، وبعْد انتهاء العام الدراسي ، وبعد تأسيسِ المحلِّ ، وبعْد الزواجِ ، قال الحسن البصري رحمه الله : « إيّاكَ والتسويفَ ، فإنّك بيومِك ، ولستَ بغَدِك ، فإنْ يكن غدٌ لك ، فكنْ في غدٍ كما كنتَ في اليومِ ، وإنْ لم يكن لك غدٌ ، فلنْ تندمَ على ما فرَّطتَ في اليومِ » .

وقيل لعالِمٍ جليلٍ حكيمٍ : أَوْصِنَا ، فقال : « احذروا (سوف) ، فإنها جندٌ مِن جنودِ إبليسَ » .

ولله دَرُّ مَنْ قال :

تَزَوَّدْ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لاَ تَـدْرِي إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الفَجْـرِ

فَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِنْ فتًى يُمْسِي وَيُصْبِحُ آمِناً وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُه وَهُوَ لاَ يَدْرِي

* * *

قصة عبد الله بن رواحة

عبدُ اللهِ بن رواحةَ ، صحابيٌّ جليل ، القائدُ الثالثُ في معركةِ مؤتةَ ؛ تروي بعض السيرُ ، أنه حين قُتل زيدٌ ، القائدُ الأولُ ، ثم قُتل جعفرُ ، القائدُ الثاني ، وجاء دورُه في القيادة ، وكان شاعراً ، تردَّد قليلاً في حَمْلِ الراية ، وقال هذين البيتين :

يا نفسُ إلاّ تُقْتَلي تَمُوتِي هذا حِمَامُ الموتِ قدْ صَلِيتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعطِيتِ إنْ تفْعلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

روى ابن إسحاق عن الزبير قال : (فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزِلنَّ أو لتكرَهِنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه

ثم أخَذَ الرايةَ ، وقاتلَ بها حتى قُتِلَ ، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فقال :

« أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ بِهَا

حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، لَقَدْ رُفِعُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ازْوِرَاراً عَنْ سَرِيرِ صَاحِبَيْهِ ، فَقُلْتُ : بِمَ هَذَا ؟ فَقِيلَ لِي : مَضَيَا وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَعْضَ التَّرَدُّدِ وَمَضَى »[1] .

قرأتُ البيتين ، وعددتُ الزمنَ ، فكان الزمنُ عشرَ ثوانٍ فقط .

أرأيتم إلى هذا التردُّدِ الذي لا يزيدُ على عَشْرِ ثوانٍ ، كيف أنّه هَبَطَ بمنزلةِ صاحبِه في الجنةِ ، مع أنّه بَذَلَ حياتَه في سبيلِ الله ، إنَّ هذه القصةَ ـ إنْ صحَّتْ ـ تؤكِّد قيمةَ الوقتِ في حياةِ المسلمِ .

* * *

والشمس تجري لمستقر لها

يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] .

إنّ الشّمسَ هي الزمانُ ، وهيَ سببُ حصولِه ، ومُنْشَعَبُ فروعِه ، وأصولِه ، وكتابُه بأجزائِه وفصولِه ، لولاها ما اتَّسقتْ أيامُه ، ولا انتظمتْ شهورُه وأعوامُه ، ولا اختلفَ نورُه وظلامُه ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

إنّ الشمسَ نجمٌ عاديٌّ ، يقع في الثلثِ الخارجيّ لشعاعِ قرصِ المجرّة

(١) مجمع الزوائد (٦/ ١٦٠) ، وقال : أخرجه الطبراني عن رجل من الصحابة ، وانظر حلية الأولياء لأبي نُعيم (١/ ١٢٠) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٣١) ، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٨) .

اللَّبنية ، وهي تجري بسرعة (٢٣٠) كلم في الثانية حولَ مركزِ المجرةِ اللبنيةِ ، الذي يبْعُدُ عنه ثلاثين ألفَ سنةٍ ضوئيةٍ ، ساحبةً معها الكواكبَ السيَّارةَ ، التي تتبعُها ، إذْ تُكمِلُ دورةً كاملةً حول مجرّتها ، فمنذُ ولادتِها التي ترجع إلى خمسةِ مليارات سنة تقريباً أكملت الشمسُ وما تبعَها من نجوم ثماني عشرةَ دورةً حولَ المجرةِ اللبنية ، التي تجري نحوَ تجمّعٍ أكبرَ هو كُدْسُ المجرات ، الذي يجري نحو تجمّع أكبرَ هو كُدْسُ المجراتِ العملاقُ ، والكُدسُ المجموعةُ الكبيرةُ ، فكلُّ جِرم في الكون يجري ويدورُ حولَ جِرمٍ آخرَ ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ ﴾ [الطارق : ١١] ، أي : كلُّ نجمٍ يدورُ حولَ نجمٍ آخرَ ، ويرجعُ إلى مكانِ انطلاقهِ النسبيِّ ، وهذه الحقيقةُ الواضحةُ تنتظمُ الكونَ كلَّه ، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ .

إنّ مستقرَّ الشمسِ هو أجلُها المسمّى ، والمقدّرُ لها مِنَ العزيز العليم ، أي : الوقت الذي فيه ينفد وقودُها فتنطفئُ ، وهذا المعنى لمستقرّ الشمس نستنتجُه من الآيةِ الكريمةِ التالية ، قال عزوجل :

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد : ٢] .

وقد تكررتْ هذه الآيةُ الكريمةُ ستَّ مرات[1] في كتابِ الله ، ربما كيْ

---

(١) وهذه المواضع هي :

١ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد : ٢] .

٢ـ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] . =

نتوقّفَ عندَ الإعجازِ العلميِّ الكامنِ فيها ، فحتى القرنِ التاسعِ عشر كانت المعلوماتُ الفلكيةُ تقول بأزليّةِ النجومِ ، أما تقديرُ العزيزِ العليمِ فهو أنّ للشمسِ أجلاً مسمًّى كَكُلِّ المخلوقاتِ ، ولم يكشفْ عِلمُ الفَلَكِ إلاّ في القرن العشرين أنّ النجوم تولَدُ ، وتنمو ، وتكبُرُ ، وتهرَمُ ، وتموتُ ، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى موتِ الشمسِ بالتحديدِ ، قال تعالى :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] .

إنّ تكويرَ الشمسِ يعنى موتَها[١] ، ويقدّر علماءُ الفَلَكِ أنَّ عمُرَ الشمسِ الحالي هو أربعةُ مليارات سنةٍ ونيِّف ، ويبقى فيها من الطاقةِ ما يمكّنها من أن تضيءَ لمدةِ ستةِ مليارات سنةٍ أخرى ، فينبغي ألاّ نقلقَ ، وبعد ذلك تكونُ قد استنفدتْ وقودَها ، فتدخلُ في فِئَةِ النجومِ الأقزامِ ، ثم تموتُ ،

= ٣ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان : ٢٩] .

٤ـ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : ٣٨] .

٥ـ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

٦ـ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٥] .

وهناك آية أخرى ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

(١) قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (٤/ ٤٧٦) : [والصوابُ من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمْعُ الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمعُ الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى (كورت) جُمِعَ بعضُها إلى بعض ، ثم لُفَّتْ ، فرُمِيَ بها ، وإذا فُعِل بها ذلك ذَهَب ضوءُها] .

وبموتها تنعدمُ إمكانيةُ الحياةِ على كوكبِ الأرضِ ، وينتهي الزمنُ بالنسبةِ للأرضِ ، بمعنًى مِن معانيه[١] .

* * *

(١) قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/ ٧٠٠) ، وفي كتابه مفتاح دار السعادة (٢/ ١٦٣ـ ١٦٤) : [واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يوما فقرأ قارئٌ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ ، حتى بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ ، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل : يا سيدي هَبْ أنه أنشرَ الموتى للبعث والحساب ، وزوَّج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب ، فما الحكمةُ في هدم الأبنيةِ ، وتسيير الجبالِ ، ودكِّ الأرض ، وفطرِ السماء ، ونثرِ النجوم ، وتخريبِ هذا العالَم ، وتكويرِ شمسِه ، وخسفِ قمرِه ؟ فقال ابن عقيل على البديهة : إنما بنَى لهم هذه الدارَ للسكنى والتمتع ، وجعلها وما فيها للاعتبارِ والتفكرِ ، والاستدلالِ عليه بحسن التأملِ والتذكرِ ، فلما انقضت مدةُ السكنى ، وأجلاهم عن الدارِ ، وخرّبها لانتقال الساكن منها ، فأراد أن يعلمهم بأن في إحالةِ الأحوالِ ، وإظهارِ تلك الأهوالِ ، وإبداءِ ذلك الصنع العظيم بياناً لكمالِ قدرته ، ونهايةِ حكمَتِه ، وعظمةِ ربوبيته. . . وعظمِ شأنه ، وتكذيبا لأهلِ الإلحاد ، وزنادقة المنجمين ، وعبّاد الكواكبِ ، والشمسِ ، والقمرِ ، والأوثانِ ، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، فإذا رأوا أنّ منارَ آلهتِهم قد انهدمَ ، وأن معبوداتِهم قد انتثرت ، والأفلاكَ التي زعموا أنها وما حَوَتْهُ هي الأربابُ المستوليةُ على هذا العالَمِ قد تشققتْ ، وانفطرتْ ظهرت حينئذٍ فضائحُهم ، وتبيّنَ كذبُهم ، وظهرَ أنّ العالَمَ مربوبٌ محدَثٌ مدبّرٌ ، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء ، تكذيبا لملاحدةِ الفلاسفةِ القائلين بقِدَمِه ، فكم للهِ من حكمةٍ في هدم هذه الدارِ ، ودلالةٍ على عظيمِ قدرته ، وعزّته ، وسلطانِه ، وانفرادِه بالربوبية ، وانقيادِ المخلوقاتِ بأسْرِها لقهرِه ، وإذعانِها لمشيئته ، فتبارك الله رب العالمين] . بتصرفٍ يسير .